خَلِيفَةُ يَسْتَشِيرُ عالِماً!!

الدكتور محمد عمر الحاجي

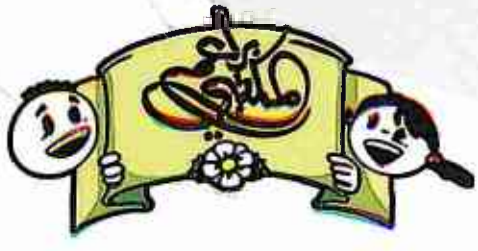

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزءٍ منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف 00963112248433 فاكس 00963112248432 ص.ب 31426

الشارقة هاتف 0097165512262 فاكس 0097165512264 ص.ب 3309

e-mail:daralbaraem@gmail.com almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

* وكيفَ ذَلكَ يا إِمَامُ *

الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ ، إمامُ دارِ الهِجْرةِ ، وأحَدُ الأَئِمَّةِ الأَرْبعة في الفِقْهِ ، وُلِدَ في سنة (٩٣ هـ) ، نَشأَ وتَرَعْرَعَ من أَجْلِ العِلْمِ والتَّعْلِيْمِ ، لكنَّهُ كانَ صُلْباً في دِيْنهِ ، بَعِيْداً عَنْ الأُمْرَاءِ والمُلوكِ ، فَحَسَدَهُ كثيرٌ من العُلَماءِ!

ثُمَّ انْطَلَقُوا إلى الخليفةِ العباسيِّ أبي جَعْفر المنصورِ ، فكذبوا على الإمامِ مالكٍ كلاماً لم يَقُلْهُ ، فأمرَ المنصورُ بِحَبْسِهِ وضَرْبِهِ!

وبالفِعْلِ ضُرِبَ الإمام حتىٰ انْخَلَعَتْ كَتِفُه ، ولم يَتَراجَعْ عَنْ مَوْقِفِهِ رَحمَةُ الله عليه.

ولما كانَ عَهْدُ هارون الرَّشيد أرسلَ إلى الإمام يطلب منهُ أَنْ يأتيهِ إلى قَصْرِهِ فيحدِّثهُ ، فرفضَ قائلاً: العِلْمُ يُؤْتَىٰ!

فركبَ الخليفةُ بموكبٍ مَهيبٍ ، وانْطَلَقَ إلى بيتِ

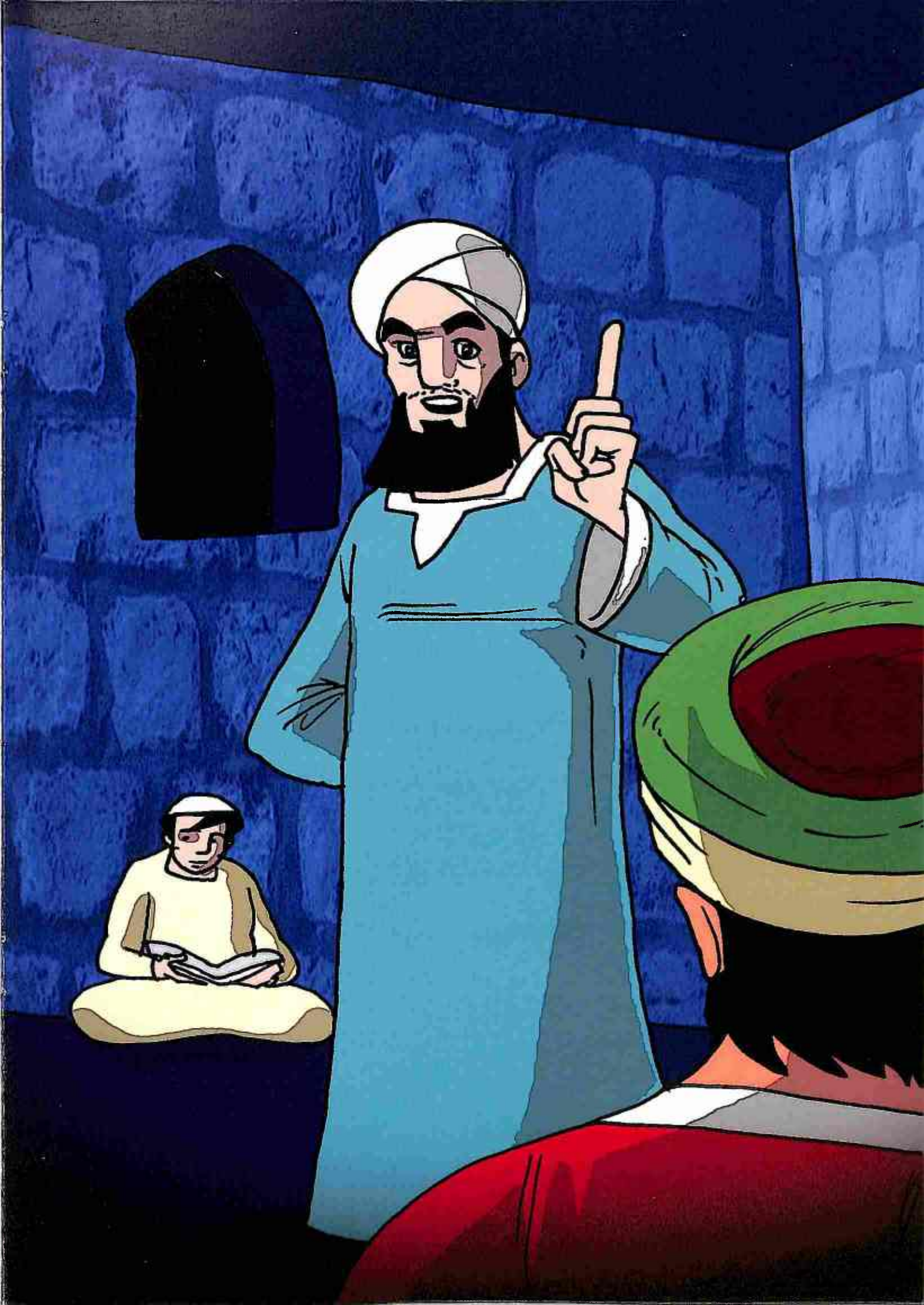

الإمامِ مالكٍ ، وهناكَ اسْتَنَدَ الخليفةُ إلى الجِدَارِ ، وراحَ يَسْتَمِعُ إِلَىٰ الدَّرْسِ.

ولما انتبهَ إليهِ الإمامُ مالكٌ قال: يا أميرَ المؤمنين! مِنْ إِجْلالِ رسولِ اللهِ ﷺ إجلالُ العِلْمِ ، فجلسَ الخليفةُ بينَ يدي الإمامِ ، واسْتَمَعَ إلى الدَّرْسِ.

ويُعَدُّ الإمامُ مالكٌ من أوَّلِ مَنْ صَنَّفَ في الحديثِ النَّبويِّ ، حيث وضعَ كتاباً اسْمُهُ الموطّأ ، وله كُتُبٌ أُخْرىٰ مثل: رِسالة في الوَعْظِ ، وتَفْسِير غَريبِ القُرآن ، وما إلى هُنالكَ.

واسْتَمَرَّ الإمامُ في سبيل العلمِ حتىٰ وافتْهُ المَنِيَّةُ في عامِ (١٧٩ هـ) رحمه اللهُ تعالى.

ومِنْ حكاياتِ الإمامِ مالكٍ النَّافعةِ ، والتي فيها العِبَرُ هذه الحكايةُ:

عن عَبْدِ الرَّحمنِ بن مَهْدي قال: جاءَ جَماعةٌ من عُلماءِ المغربِ العربيِّ ، ولما حَضَرُوا دَرْسَهُ في المسجدِ النَّبويِّ ، قال كبيرُهم: يا إمام! لقد جِئْنا مِنْ مسَافاتٍ

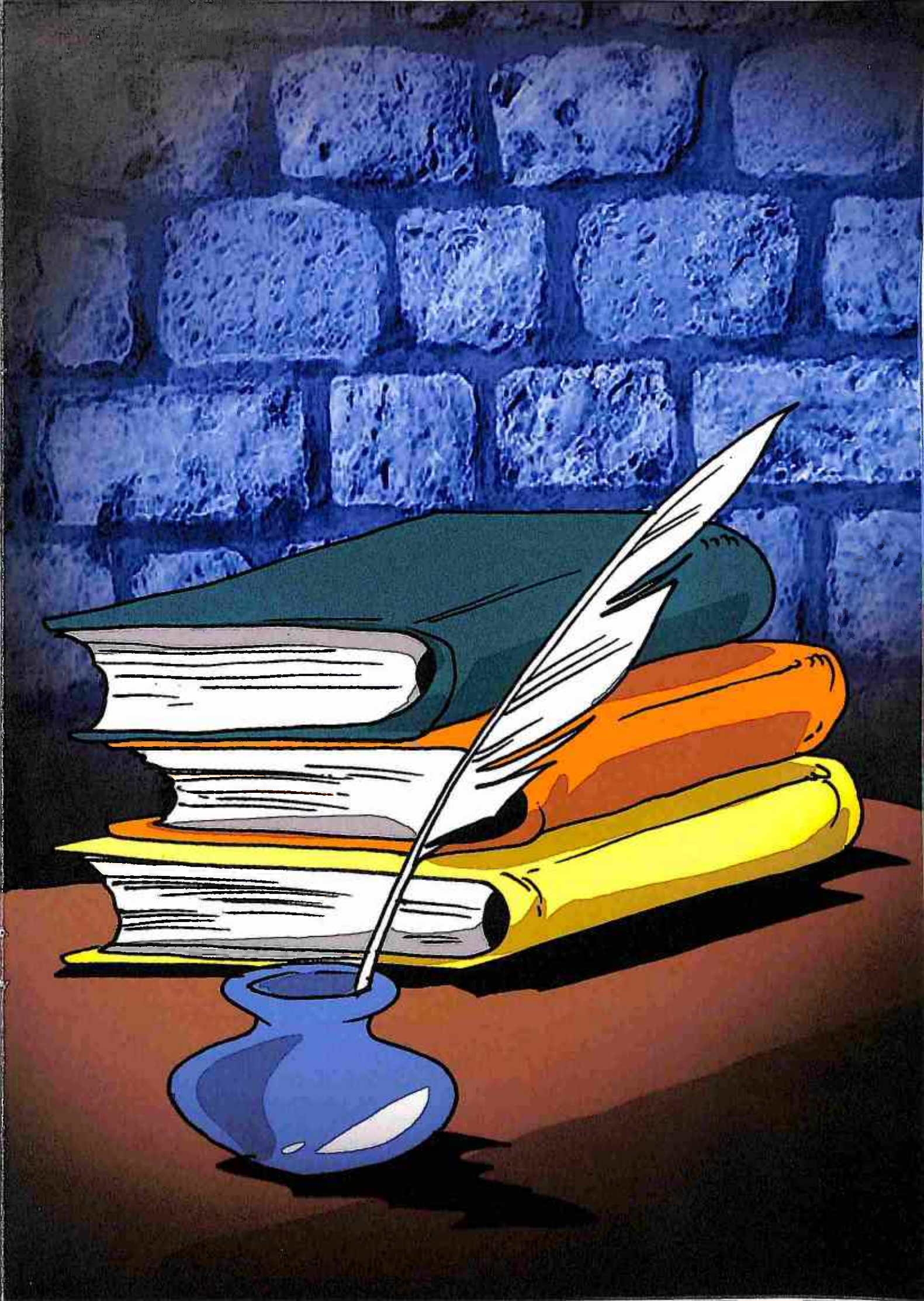

بَعِيْدةٍ ، ولدينا بعضُ الإشْكالِيَّاتِ ، وقد سَأَلْنا كثيراً من عُلَمائِنا ، فما وَجَدْنا الجوابَ الشَّافيَ.

فقال الإمامُ مالكٍ: هاتِها؛ واحدةً واحدةً.

وراحَ الرَّجُلُ يَسْرُدُ على الإمامِ مالكٍ الإِشْكَالِيَّاتِ ، والإمَامُ تارةً يُجِيبُ ، وفي الغالب يقولُ: لا أَدري!

ولما انتهىٰ الرجلُ من ذلكَ قال: يا إمامُ سَأَلْتُكَ عن ثلاثين مَسْأَلَةً ، فأجبتَ عن سبعةٍ منها ، والباقي كان جوابُكَ: لا أَدري ، فكيفَ ذلكَ وأَنتَ إمامُ دارِ الهِجْرةِ؟!

فقال الإمامُ مالكٍ: يا هذا! أَما عَلمتَ أَنْ نِصْفَ العِلْمِ لا أَدري؟! ولقد سُئِلَ من هو خيرٌ مِنِّي فأَجابَ بذلكَ!

فقال الرجلُ: وكيف ذلكَ يا إمامُ؟

فقال مالكٌ: لقد سُئِلَ الملائكةُ عن الأسماء ، فاعْتَرَفُوا بأنهم لا يَعْرِفُونَ ، مِصْدَاقُ ذلكَ قولهُ تَعالى: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٢].

فتعجَّبَ الرجلُ وقال: أَفأذكر عنكَ أَنَّكَ لا تدري؟!

فقال الإمامُ مالكٌ: اِحْكِ عَنِّي أنِّي لا أَدْرِي!!

* خَليفَةُ المسْلمينَ يَسْتَشيرُ الإمامَ مالكاً *

ومِنْ حِكَاياتِ الإمامِ مالكٍ رحمهُ اللهُ ، والتي فيها العِبَرُ؛ ما أوْرَدَهُ الإمامُ الذَّهبيُّ عن عبد الله بن الحَكَم قال:

سمعتُ الإمامَ مالكاً يقولُ: شَاوَرَنِي هارونُ الرَّشِيْدُ في ثلاثةٍ:

- في أن يُعلَّقَ كتابي (الموطأ) على الكعبة ، ويُحْمَل النَّاسُ على ما فيهِ.

- وفي أن يَنقَضَ منبرَ رسولِ اللهِ ﷺ ويَجْعَلَهُ مِنْ ذَهبٍ وفِضَّةٍ وجوهر.

- وفي أن يقدِّمَ نافعاً إماماً في مَسْجِدِ النَّبي ﷺ.

فقلتُ: أما تعليقُ (الموطأ) فإن الصحابةَ اخْتَلَفُوا في الفروعِ وتفرّقوا ، وكلٌّ عند نفسه مصيب.

وأما نَقْضُ المنبرِ لا أرىٰ أن يُحْرمَ النَّاسُ أَثَرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وأمَّا تقديمكَ نافعاً فإنَّهُ إمامٌ في القِراءةِ

لا يُؤْمَنُ أَنْ تَبْدُرَ مِنْهُ بادرةٌ في المحرابِ ، فَتُحْفَظ عليه!

فقالَ: وَفَّقَكَ اللهُ يا أبا عبد اللهِ.

* أيُّهما أكثرُ صياحاً؟! *

تَتَلْمَذَ الشَّافعيُّ على الإمامِ مالكٍ ، وأخذَ عَنْهُ العُلومَ الكثيرةَ ، وكانَتْ بينهما عَلاقةٌ يَسُودُها الحُبُّ والاحْتِرَامُ ، وقد وَرَدَ في ذلكَ قَصَصٌ نافِعَةٌ ، منها ما أَوْرَدَهُ الإمامُ السُّبكيُّ عن الرَّبيعِ بنِ سُليمانَ؛ قال:

كانَ الشَّافعيُّ يوماً جالِساً بينَ يدي الإمامِ مالكٍ ، فجاء رجلٌ فقال لمالك: إنِّي رجلٌ أبيعُ القُمري - وهو نوع من أنواع الطيور يُشبِهُ الحمام -.

قال: وإنِّي بعتُ في يومي هذا قُمرّياً ، فردّهُ عليّ وقال: قُمرّيكَ هذا لا يصيحُ.

فحلفتُ لهُ بالطَّلاقِ أن قُمريَّ لا يهدأُ من الصِّياحِ.

فقالَ لهُ الإمام مالك: طَلَقَتْ امرأتكَ ولا سبيل لكَ عَلَيها!

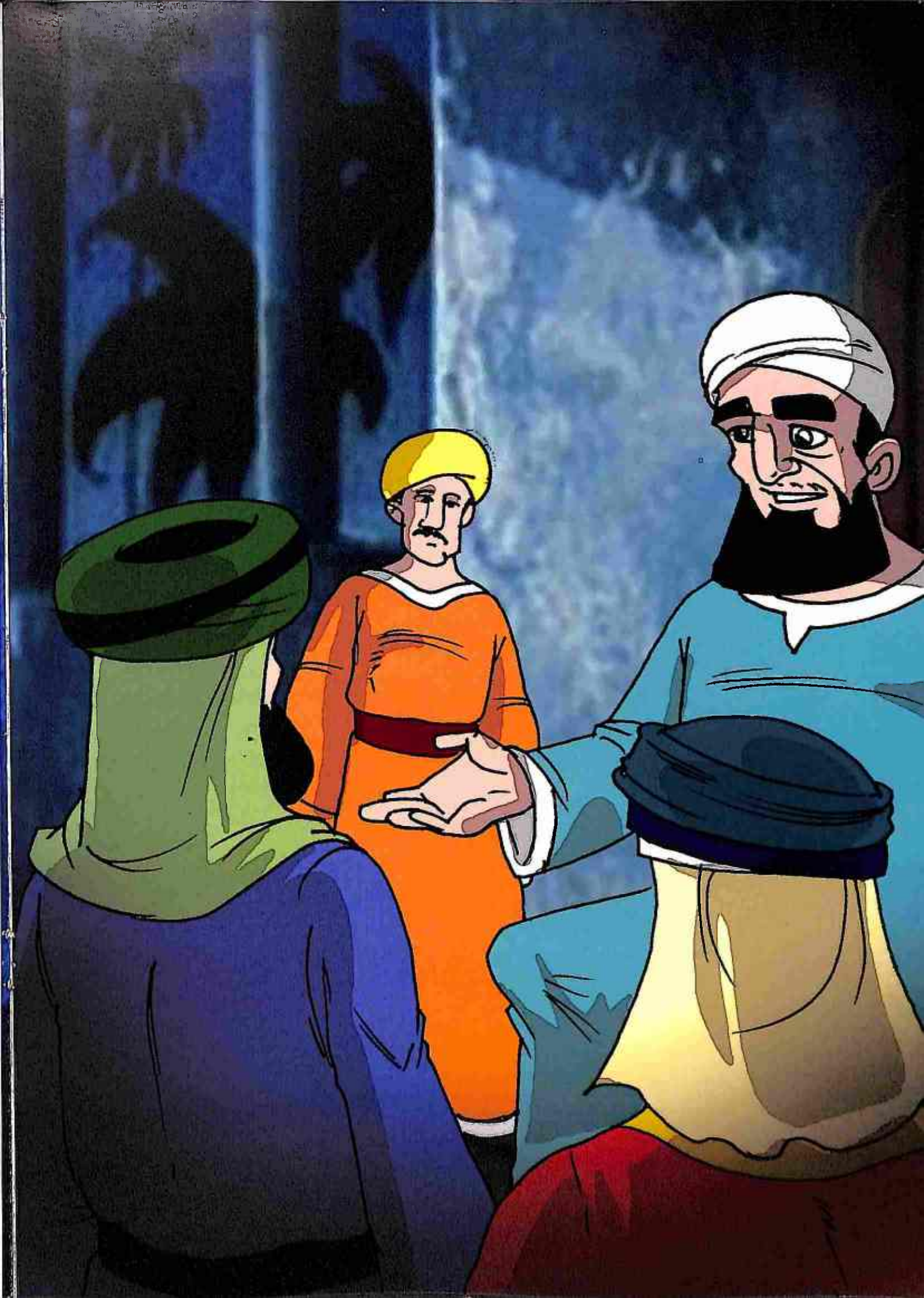

وكانَ الشَّافعيُّ يومئذٍ ابنَ أربعَ عشرةَ سنةً ، فقال لذلكَ الرجلِ: أيّهما أكثر ، صياحُ قمريك أم سُكُوتُه؟

فقال: صِياحُه.

فقالَ الشَّافِعيُّ: أمسك ولا شَيءَ عليكَ!

فلما سَمِعَهُ الإمامُ مالكٌ زَجَرَهُ وقال لهُ: يا غلامُ مِنْ أينَ لَكَ هذا؟

قال: لأنَّكَ حدَّثتني عن الزُّهري عن أبي سَلَمة بن عبد الرَّحمن عن أم سَلَمةَ أن فاطمة بنت قَيس قالَتْ: يا رسُولَ اللهِ! إنَّ أَبَا جَهْمٍ ومعاويةَ خَطَبا لِي.

فقال: أَمَّا معاويةُ فَصُعْلُوكٌ ، وأَما أَبو جَهْمٍ فرجلٌ لا يَذرُ سَوْطَهُ عن عاتِقِهِ ، وقد كان أبو جهم يأكلُ وينامُ ويدعُ عَصاهُ في بَعْضِ أَحْوالِهِ ، والعربُ تجعلُ أكثرَ الفِعْلَيْنِ لمداومتهِ ، فلما كانَ صياحُ قُمريِّ هذا أكثر من سُكُوتهِ ، جَعَلْتُهُ في صِيَاحِهِ دائماً.

فتعجَّبَ الإمامُ مالكٌ من احْتِجَاجِ تِلْمِيذِهِ الشَّافِعيّ ، ووافَقَ على ذلك!

ومِنْ الحِكاياتِ النَّافِعةِ الَّتي حَدَثتْ مع الإمامِ مالكٍ رحمه الله هذه الحِكايةُ: قال القاضي عِياض في: سيرة الإمامِ مالكٍ:

قالَ ابنُ نافعٍ وغيرُه: سُئِلَ الإمامُ مالكٌ عن قَولِ الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

سُئِلَ: هل يَنْظُرون إلى الله حقّاً؟

فأجابَ الإمامُ مالكٍ: نعم ، بِأَعْيُنِهم هاتَيْنِ.

فَسُئِلَ: ولكنَّ قوماً يقولون: ناظرة بمعنىٰ مُنتَظِرة إلى الثَّواب ، فماذا ترىٰ؟

قال مالكٌ: بل تنظرُ إلى الله تعالى ، أما سَمِعْتَ سُؤالَ نَبِيِّ اللهِ موسىٰ عليهِ السَّلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ، أتُراهُ سَأَلَ أَمْراً مُحالاً؟

وقد جاءه الجوابُ من قِبل الله سبحانه: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي: لنْ تَرَانِي في الدُّنيا ، لأنَّها دارُ فَناءٍ ، فإذا صاروا إلى دارِ البَقاءِ نَظَروا بما يبقىٰ إلى

ما يبقى ، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾

[المطففين: ١٥].

وإذا حجَبَ الكفرةَ الفُجَّار عن الرُّؤْيةِ ، معنىٰ ذلكَ أنَّها مُمْكِنة للصَّالحينَ والأَبْرارِ.

* وليْتَني لَمْ أُفْتِ بالرَّأْي!! *

دَخَلوا على الإمامِ مالكٍ في مَرضهِ الذي ماتَ فيهِ ، فسَلَّمُوا عليهِ ، ثمَّ جَلَسُوا ، فَرَأوهُ يبكي ، فَسَأَلُوهُ: ما الذي يُبْكِيكَ يا أَبَا عَبْدِ اللهِ؟

فقال: ومالي لا أَبكي؟ واللهِ لَوَدِدْتُ أني ضُرِبْتُ لكلِّ مَسْأَلةٍ أَفْتَيْتُ فيها برأيي بسوطٍ ، وقد كانت لي السّعةُ فيما قد سُبِقْتُ إليهِ.

* * *